



شرح كشف الشبهات

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤٠/٠٦/٠٣ هـ

الدرس الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد :

فإن من نعم الله العظيمة على عبده المسلم أن ييسر له في حياته تعلم التوحيد الذي خُلق لأجله، وأوجد لتحقيقه، ومعرفة دلائله وحججه وبياناته، وأيضاً أن يعرف ما يضاد التوحيد ويناقضه أو يُنقص كماله ليكون على حذر تام من كل أمرٍ يناقض التوحيد أو ينافيه، ومن كل أمرٍ يُنقص من كمال التوحيد، ويكون التوحيد عند المرء المسلم أثمن شيء وأعلى كنز وأعظم أمرٍ يُعنى به في حياته كلها ، وتكون عنايته بتوحيده مقدمةً على العناية بكل أمرٍ، واهتمامه بتوحيده مقدماً على الاهتمام بكل أمر ، لأن التوحيد أعظم مطلبٍ وأجل مقصد وأنبل غاية ؛ وهو أساس هذا الدين، وأصله الذي عليه يبنى، وهو أساس قبول الأعمال، وزكاء الطاعات وصلاحها، وأساس قبولها عند الله تبارك وتعالى ، كل عمل يقوم به الإنسان ولا يكون قائماً على توحيد الله عز وجل فإنه يذهب هباءً، ولا ينتفع به عامله أي شيء ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَاعْمَلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، قد قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال جل وعلا : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] .

ولهذا فإن عقد المجالس لدراسة التوحيد وبذل الأوقات لمعرفته ومعرفة دلائله وحججه وقراءة ما كتبه أئمة أهل العلم في هذا الباب هو من أهم المهمات وأعظم المطالب التي ينبغي على طالب العلم أن يُعنى بها. والعناية بالتوحيد تتناول جانبين لا بد منها:

- الجانب الأول: معرفة التوحيد؛ من حيث تقريره وتأصيله وذكر دلائله وحججه وبياناته.
- والناحية الأخرى: معرفة الأمور التي هي من نواقض التوحيد أو من نواقصه؛ لأن للتوحيد نواقض وله نواقص، طالب العلم والمسلم عموماً كما أنه مطالب بمعرفة التوحيد ليحققه، فإنه في الوقت نفسه مُطالب بمعرفة نواقضه ونواقصه ليحذرهما، لتكون مستبينة له، واضح أمرها عنده ، فيكون منها على حذر، ويكون أيضاً محذراً للناس من الوقوع فيها ومن سوء مغبتها وعاقبتها على من وقع فيها في دنياء وأخراه ، قد قال الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، في صحيح البخاري عن حذيفة رضي الله عنه، قال: «كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَكَانَتْ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَهُ» ، فهذا مطلب لا بد منه، كما أن المسلم مطالب بمعرفة الحق ليتبعه فإنه كذلك مطالب بمعرفة الباطل ليحذره. ولأجل هذا ألف العلماء رحمهم الله مؤلفات مفردة في الكبائر وبيانها وعدّها، ومن ألف في الكبائر: مؤلف هذا الكتاب الذي اجتمعنا لدراسته؛ أعني شيخ الإسلام الإمام الهمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ، له

كتاب في الكبائر من أنفس ما يكون، ومن قبله للإمام الذهبي في آخرين من أهل العلم ألفوا في بيان الكبائر ، وأكبر الكبائر الشرك بالله عز وجل، أكبر الكبائر الشرك بالله، وهو ناقض التوحيد. وقد قيل قديماً: «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي!» ، كيف يتقي الشرك من لا يعرفه!، كيف يتقي المحرمات من لا يعرفها، ولهذا فالمسلم كما أنه مطالب بمعرفة الحق فإنه مطالب أيضاً بمعرفة ما يناقض الحق أو ينقصه ليحذر من الوقوع فيه، ويتأكد هذا الأمر عندما توج الشبهات وتكثر الفتن ويتوارد أهل الباطل على تشكيك أهل الحق في ثوابتهم ومسلماتهم، بطرح الشبهات العاصفة التي تفتن الناس وتلبس عليهم دينهم وتصرفهم عن الحق الذي خلقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه، وقد خاف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من أئمة الضلال قال: ((إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين))، فخاف عليه الصلاة والسلام على أمته من أئمة الضلال ودعاة الباطل؛ لأنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق ، لأنهم يشبهون على الناس . وكم من أناس حُرِفَتْ عقائدهم وصُرفوا عن الجادة السوية بسبب دعاة الباطل وأئمة الضلال ؛ بل إن دعاة الباطل يستमितون في جلد عجيب ودأبٍ وجدٍ واجتهاد في تمكين الشبهات وغرسها في الناس ليعدوهم عن دين الله تبارك وتعالى، ولا يزال أهل الباطل يشبهون على الناس ويفتنوهم في دينهم في قديم الزمان وحديثه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء واصفاً حالهم على مر العصور واختلاف الأزمان قال: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]؛ فهي متشابهة في الصد عن الحق والتمكين للباطل وطرح الشبهات على الناس ليعدوهم عن دين الله تبارك وتعالى.

ولقد عظمت المصيبة في زماننا هذا عندما انفتح على الناس من وسائل الاتصال الحديثة ونقل المعلومات السريعة، بحيث يمكن للإنسان أن يقول الكلمة فتصل في اللحظة الواحدة إلى أطراف الدنيا، من خلال القنوات الفضائية ومن خلال الانترنت الشبكة العنكبوتية، ومن خلال الهواتف ولا سيما الهاتف النقال الذي يحمله كثير من الناس، وأصبح أهل الباطل يجدون من خلال هذه المجالات وسائل سهلة لهم لنشر باطلهم . والذي يدمي القلب ويحزن الغيور أن ترى في كثير من أبناء المسلمين وبناتهم من يجد متسعاً من وقته ليسمع لمن يلقيون الشبهات، ولا يجد متسعاً من وقته ليتعلم التوحيد! .

أعيدها مرة ثانية: أقول مما يدمي القلب ويؤلم الغيور أن كثيراً من أبناء المسلمين وبناتهم يجد من وقته متسعاً لسماع تلك الشبهات والجلوس أمام تلك القنوات وأمام المواقع المريبة في الانترنت، ولا يجد متسعاً من وقته ليتعلم التوحيد؛ بل بعضهم ما جلس لتعلم التوحيد ثم فتح قلبه لأصحاب الشبهات ليودعوا في قلبه سم شبهاتهم وركام باطلهم! وهنا تتلوث العقول وتفسد العقائد وتحزب الأديان وتفشوا الضلالات، مما يتطلب على أهل الحق والغيرة على دين الله تبارك وتعالى أن يبذلوا ما استطاعوا من جهودٍ في أولاً: تعلم العلم والجلوس لمدارسته ومذاكرته، ومن ثم بثه ونشره في الناس وتعليمه لهم ، ولهذا أدعوك أن تحتسب في مثل هذه المجالس أن تكون معلماً للخير، ناصراً لدين الله تبارك وتعالى ، تفقه الدين تعرف التوحيد، وتعرف الحق وتعرف الهدى، وتعرف أيضاً شبهات أهل

الباطل وطريقة أهل العلم في ردها لتكون بإذن الله تبارك وتعالى من أنصار هذا الدين ومن دعاة الحق ومنارات الخير، ومن العاملين في صد هذه الأباطيل ورد هذه الشبهات.

ومن عجيب وغريب أمر كثير من الناس أعني عوامهم وجهالهم ؛ أن صار أمرهم في مجالسهم تطارح شبهات يحارون في جوابها، وترى كلاً منهم يتكلم ويهرف بما لا يعرف مما سمعوه من تلك القنوات، ولا يجد هؤلاء وقتاً لدراسة الحق والهدى على بابه الصحيح ووجهه القويم.

إن شبهات أهل الباطل التي أثاروها في قديم الزمان ولا يزالون يثيرونها في كل زمان وأوان، تحتاج من دعاة الحق وأهل الخير إلى وقفة صادقة في الذب عن دين الله تبارك وتعالى وحماية حماه . وإذا كان -أيها الأخوة الكرام- إذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام عدّ من شعب الإيمان العظيمة وخصاله الجليلة إمطة الأذى عن الطريق، أن تجد شيئاً من القدر أو الشوك أو الأمور المؤذية في طريق الناس فتमितطها عن طريقهم لئلا تؤذيهم ؛ عدّ ذلك عليه الصلاة والسلام من شعب الإيمان، فكيف بإمطة الشبهات التي أقذع الأذى وأشدّه؛ لأنها في طريق السائرين إلى الله عز وجل بالإخلاص والتوحيد، وإذا ابتلي الناس بهذه الشبهات ربما أخرجتهم عن صراط الله المستقيم، وكما قدمت كم من إنسان حُرّف عن العقيدة الصحيحة والسبيل القويم بسبب الشبهات المهلكة، فإذا كان إمطة الأذى عن طريق المسلمين شعبةً من شعب الإيمان، فإن إمطة الشبهات بكشفها وتعريضها وبيان حقيقة أمرها وإيضاح زيفها ووهائها من أجلّ القربات وأنفع الطاعات التي يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى.

وهنا ندرك الفضل العظيم والخير الكبير الذي حبا الله سبحانه وتعالى به من حبا من عباده بأن كانوا أنصاراً للحق ببيانه ورد الشبهات التي يثيرها أهل الباطل صدأً عن الحق والهدى ، ولا أبالغ عندما أقول إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا أعني كتاب «كشف الشبهات» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لم يؤلف في بابه مثله، مع وجازة الكتاب واختصاره في مادته العلمية ومباحثه إلا أنه لم يؤلف في بابه مثله!، ولا غرّو في ذلك! فإن من كتب هذا الكتاب إمامٌ مجدّد وعلمٌ مصلح وإن رغمت أنوف، نصر الله عز وجل به دينه وأعلى به كلمته، وانتشر دين الله عز وجل الصافي النقي في أنحاء المعمورة، في دعوة مباركة يسّر الله تبارك وتعالى هذا الإمام للقيام بأعبائها؛ كان من جهوده في نصر الحق وبيانه أن ترك مؤلفات عظيمة نافعة لا تزال زاداً لطلاب العلم ، وبركة هذه المؤلفات ظاهرة، في عقد الدروس والمجالس الكثيرة لمذاكرتها، وكتابة المؤلفات الكبيرة في شرحها وبيانها، وترجمتها إلى كثير من لغات العالم، وهذه بركة طرحها الله عز وجل في دعوة هذا الإمام؛ الدعوة الصافية النقية إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له، واتباع رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولما كان رحمه الله تعالى في زمانه متحملاً أعباء الدعوة، ناشراً التوحيد في الناس، مبيناً دلائله وحججه؛ كان دعاة الباطل وأهل الأهواء في زمانه يثيرون الشبهات في الناس لصدهم عن هذه الدعوة، وأثاروا شبهات كثيرة أرادوا من ورائها صد الناس عن الدعوة إلى التوحيد التي قام بأعبائها هذا الإمام رحمه الله، فانبرى رحمه الله تعالى وأتى على

أبرز شبهات هؤلاء وجمعها في هذه الرسالة وأجاب عنها بأجوبة مقنعة ، وكشف ما فيها من زيف وضلال وباطل بما لا مزيد عليه. ولم يكن رحمه الله تعالى في هذا الكتاب مقتصراً على كشف تلك الشبهات التي أثّرت في زمانه من دعاة الباطل؛ بل كان -وهذا من تمام نصحه رحمه الله تعالى- مؤصّلاً في كتابه الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها طالب العلم في موقفه من الشبهات وفي طريقة ردّها وبيان فسادها. وشبهات أهل الباطل كثيرة وعديدة، قد لا يتسنى لكل طالب علم أن يعرف بشبهات أهل الباطل وأجوبة أهل العلم لها معرفة تفصيلية، فوضع رحمه الله في مقدمة كتابه كشف الشبهات تأصيلاً مباركاً وتقريراً نافعاً لطالب العلم يسير على ضوئه في رد شبهات أهل الباطل، ولا سيما إذا لم يكن على معرفة تفصيلية بكشف تلك الشبهات، ومن أهم ما يكون في ذلك أن يعرف الحق الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم واجتمعت عليه دعوة الأنبياء والمرسلين ، فكانوا من أولهم إلى آخرهم دعاة له، يعرف ذلك معرفة جيدة، ويعرف دلائله وحججه وبيّناته، ويعرف أيضاً في الوقت نفسه دين المشركين الذي بعث النبي صلى الله عليه وسلم بإبطاله ونقضه وهدمه، ماذا كان عليه المشركين من دين؟ يعرف ذلك، فإذا عرف دين النبي عليه الصلاة والسلام وعرف دين المشركين الذي بعث النبي صلى الله عليه وسلم بإنكاره، إذا عرف هذين الأمرين معرفة جيدة سلم من جُلّ شبهات أهل الباطل، فإذا عرف الحق وعرف ضده، عرف صحة الحق وعرف بطلان ضده، فإنه بإذن الله تبارك وتعالى لا تنفق عنده شبهة ولا تروج، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

ولهذا مهّد الشيخ رحمه الله تعالى بتمهيد نافع جداً جعله في صدر الكتاب وأوله في بيان دين نبينا عليه الصلاة والسلام ودين الأنبياء واجتماعهم على توحيد الله وإخلاص الدين له، وبيان دين المشركين وحقيقة دينهم الذي بعث النبي صلى الله عليه وسلم وبعث الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه عليهم من قبله لإنكاره وإبطاله، مهّد لذلك ثم بعد ذلك ذكر تقريراً مجملاً في رد الشبهات وكشفها، ثم ذكر أبرز الشبهات التي أثّرت في زمانه من أرباب الباطل وأهل الاهواء، فأجاب عنها إجابة تفصيلية، وبهذه الأمور الثلاثة يكون رحمه الله وضع النقاط - كما يقال - على الحروف، ووضع المنهج السديد في السلامة من الباطل وشبهات أهله أيّاً كانت.

فنسأل الله عز وجل أن يجزيه خير الجزاء وأن يرفع قدره، وأن يعلي مقامه في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وأن يبارك في جهوده العظيمة وأن يرزقنا جميعاً حسن الاستماع وحسن الانتفاع، إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء.

وأما مؤلف الكتاب فهو غني عن التعريف -رحمه الله تعالى-، وأما مؤلفه فهو الذي بين أيدينا كتاب «كشف الشبهات»، وسنقف إن شاء الله بما يسمح به الوقت على مضامين هذا الكتاب العظيمة.

وأشير إلى أن هذا الكتاب حظي بشروحاتٍ عديدة مكتوبة وصوتية من أكابر أهل العلم، وأنصح بمطالعة الشروحات لهذا الكتاب ولا سيما شرح الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى، وهو مطبوع جُمع من تقريراته رحمه الله، جمعه تلميذه الشيخ محمد بن عبد الرحمن القاسم رحمه الله، وأيضاً شرح الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى، والشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى، والشيخ صالح الفوزان حفظه الله تعالى، وجميعها موجودة صوتاً وكتابةً فُرغت من الأشرطة، وهي شروحات نافعة ومفيدة جداً لطالب العلم. ونسأل الله عز وجل أن يمن علينا أجمعين بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يسلك بنا جميعاً في الباب العظيم من أبواب الخير، فإنه تبارك وتعالى ولي التوفيق والسداد.

قال شيخ الإسلام الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وقدس روحه في الجنة:
اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ، وَهُوَ دِينَ الرِّسْلِ الَّذِي أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ.

قال الشيخ رحمه الله تعالى: "بسم الله الرحمن الرحيم" أولاً هذا الكتاب سماه رحمه الله تعالى «كشف الشبهات»، والكشف في اللغة معناه معروف؛ عندما يقال كشف الشيء أي: أزال عنه ما يغطيه، يقال كشف مثلاً فلان اللثام عن وجهه أي: أماهه وأزاله عن وجهه، فأصبح وجهه بدل أن كان خفياً أو غير ظاهرٍ أصبح ظاهراً، فكشَفَ الشيء بأن يُمَاط عنه ما يغطيه.

والشبهات: هي الأمور التي يلبس فيها الحق والباطل، يشبّه فيها على الناس بحيث عندما تثور هذه الشبهات تجعل الأمر ليس واضحاً، فيلتبس عليهم الحق بالباطل وتشتبه عليهم الأمور، فلا يكون الحق مستبيناً لهم أنه حق، ولا يكون أيضاً الباطل مستبيناً لهم أنه باطل؛ فتلتبس عليهم الأمور وتختلط عندهم، ويصبح الأمر بدل أن كان واضحاً يصبح ملتبساً مختلطاً غير واضح.

وكشف الشبهات: أي تعريضها وبيان فسادها وبطلانها بحيث يكون ظهور بطلانها واضحاً للناس، والشبهة إذا ثارت التبس الأمر على الناس فلم يميزوا بين حق أو باطل، فإذا قَيَّضَ الله سبحانه وتعالى لهم علماً ناصحاً فكشف عنهم الشبهة رأوا الحق. فالشيخ رحمه الله عليه سمى كتابه «كشف الشبهات»؛ لأنه أزال فيه بتوفيق الله تبارك وتعالى ما يثيره أهل الباطل من أمور يلبسون بها على أهل الحق وأهل التوحيد.

وبدأ رحمه الله كتابه بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» تأسيساً بكتاب الله عز وجل، وتأسيساً بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام في مكاتباته ومراسلاته. والباء في «بسم الله» باء الاستعانة، وقوله «بسم الله» أي أبدأ بذكر اسم الله تبارك وتعالى، أبدأ كتابي هذا أو أكتب كتابي هذا مستعيناً بالله تبارك وتعالى، ذاكراً اسمه جل وعلا.

قال : «اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة»؛ "اعلم" هذه كلمة يؤتى بها في الأمور العظيمة المهمة التي تحتاج إلى استدعاء انتباه السامع وشد ذهنه وجمع قلبه، وعنايته بالموضوع الذي يُلقى عليه، فهي يؤتى بها للتنبيه وشد الانتباه ، ويؤتى بها في الأمور العظام، وفي القرآن الكريم أتت في مواضع عديدة، جلُّها فيما يتعلق بتوحيد الله عز وجل ومعرفة عظمته وجلاله وكماله وأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، فيما يقرب من ثلاثين موضعاً أو يزيد، منها قول الله عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهي كلمة يؤتى بها في الأمور العظيمة التي يستدعي المقام شدَّ انتباه الناس لهذه الأمور حتى يحسنوا الاستماع ومن ثم يحصل بإذن الله تبارك وتعالى الانتفاع.

«اعلم رحمك الله» ؛ وهذا أيضاً من نصحه، بدأ الكتاب بهذه الدعوة لمطالع هذا الكتاب وقارئه والمستفيد منه، دعا له بالرحمة. والرحمة تارة تُذكر مع المغفرة وتارة تذكر مفردة، كما ذكرها الشيخ هنا رحمه الله

● فإذا ذُكرت مع المغفرة فإن المراد بالمغفرة ستر ما مضى وكان، والمراد بالرحمة التوفيق فيما يستقبله المرء من الأيام والأزمان.

● وإذا ذُكرت الرحمة وحدها هنا جمعت الأمرين، فقوله «رحمك الله» أي بأن يغفر لك ما مضى، وهذا من رحمة الله بعبده، وأن يوفقك فيما بقي من حياتك. إذا أطلقت الرحمة والدعاء بالرحمة يشمل الأمرين، «اعلم رحمك الله» يشمل غفران ما مضى؛ من رحمة الله بك أن يغفر لك ما مضى وما سلف وما كان، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بك أن يوفقك لسديد الأعمال وصالح الأقوال فيما بقي من حياتك.

((أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة))؛ «التوحيد»: هذه الكلمة مصدر للفعل وَحَّدَ يُوَحِّدُ توحيداً ، وهو أصلٌ يدل على الإفراد، وتوحيد الله عز وجل : هو إفراده تبارك وتعالى بخصائصه سبحانه وتعالى في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته وفي ألوهيته، أن يُفرد جل وعلا بكل ما هو مختص به عز وجل من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وبربوبيته وأنه سبحانه المتفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتصرف والتدبير إلى غير ذلك، وأن يُفرد تبارك وتعالى وحده بالعبادة، فلا يُجعل معه شريكاً في شيء منها، هذا هو التوحيد، توحيد الله عز وجل: أن يفرد جل وعلا بخصائصه عز وجل في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته. ولهذا قال أهل العلم التوحيد ينقسم إلى أقسام ثلاثة: توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية.

والشيخ رحمه الله عليه عرّف التوحيد هنا، بل كثيراً ما يأتي هذا التعريف في مصنفاته رحمه الله ورسائله ومكاتباته لأنه تعريف مختصر وجامع. قال: ((اعلم أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة)) ؛ إفراده بها: أي لا يُجعل معه فيها شريك، بأن يُخص بها تبارك وتعالى وحده، فلا يُجعل معه شريك في شيء منها.

قال: ((اعلم أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة)) ؛ وهنا يتطلب أيضاً الأمر من الموحد أن يعرف العبادة ماهي؟ حتى لا يصرف شيئاً منها لغير الله، وحتى يخص بها الله جل وعلا، فإذا كان لا يعرف العبادة ماهي فربما صرف

شيئاً منها لغير المستحق لها وهو الله تبارك وتعالى، والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، وهو التعريف الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «العبودية» وتناقله عنه أهل العلم، وهو من أجمع ما قيل في بيان حد العبادة وتعريفها؛ اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. فالعبادة حق لله عز وجل يجب أن يفرد بها عز وجل .

ولم يذكر هنا ما يتعلق بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات لأن هذا التعريف أو هذا التوحيد أعني توحيد الألوهية متضمن للتوحيدين ، توحيد الألوهية الذي هو إفراد الله بالعبادة متضمن للتوحيدين، لا يكون عبداً لله تبارك وتعالى مخلصاً له العبادة إلا من عرفه رباً خالقاً رازقاً مدبراً له الأسماء الحسنى والصفات العليا، فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، أما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فإنهما مستلزمان لتوحيد الألوهية. وإذا قلنا أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات فمعنى ذلك: أنه لا يكون موحداً لله عز وجل في ألوهيته إلا من عرفه رباً وعرف أسمائه وصفاته، وأما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فإنهما مستلزمان لتوحيد الألوهية ، قد يكون الإنسان مقراً بالربوبية - بأن الله هو الرب الخالق الرازق المنعم- ولكن لا يخلص العبادة لله ولا يفرد الله عز وجل في العبادة، وهذا أمر سيأتي تبينه وتوضيحه وذكر الأدلة عليه في كلام المصنف رحمه الله تعالى .

قال: ((اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده))؛ وهذه حقيقة عظيمة جداً ينبغي العناية بها ؛ أن هذا التوحيد الذي هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة هو دين الرسل، دين الرسل: أي من أولهم إلى آخرهم، كلهم متفقون عليه مجتمعون على الدعوة إليه، لا خلاف بين نبي وآخر فيه، كلمتهم فيه واحدة، وقولهم فيه سواء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١] ومعنى قوله ﴿قَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ النذر: هم الرسل. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: أي كلهم تواردت كلمتهم واتفقت دعوتهم على هذا الأمر: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وكلهم متفقون كلمتهم واحدة، الرسل من أولهم إلى آخرهم كلمتهم واحدة، ﴿قَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ على ماذا؟ على أي شيء؟ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

هذه هي دعوة جميع المرسلين الرسل عليهم صلوات الله وسلامه كلمتهم واحدة ودعوتهم واحدة، كلهم دعاة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وهذا هو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: ((نحن الأنبياء أبناء علات ديننا واحد وأمهاتنا شتى))، فقوله: ((ديننا واحد)) أي فعقيدتنا واحدة أصولنا واحدة، لا خلاف بين نبي وآخر في الأصول، الأصول واحدة، أمور التوحيد وأمور العقائد عند الأنبياء واحدة لا اختلاف بين نبي أو آخر في شيء منها، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: العقيدة ليس فيها نسخ، لا في شرائع الأنبياء، ولا في شريعة النبي الواحد، لا يدخل العقيدة نسخ، النسخ يدخل على الأحكام، قد يأتي نبي وينسخ شيئاً من الأحكام التي أتى بها النبي الذي قبله، وأيضاً قد يأتي النبي بشيء من الأحكام ثم تُنسخ في شريعته هو؛ لكن العقيدة لا يدخلها نسخ، لا في شريعة النبي الواحد ولا في شرائع الأنبياء عموماً، أمور ثابتة لا يطرأ عليها تغيير أو تبديل وكلمة الأنبياء فيها واحدة، وهذا هو معنى قوله رحمه الله تعالى: «وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده»، فالله عز وجل أرسل الرسل إلى عباده بهذا الدين، بتوحيده وإخلاص الدين له تبارك وتعالى.

قال رحمه الله:

فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين ودا وسواها وبغوث ويعوق و نسرا .
ثم قال رحمه الله: «فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين»؛ نوح عليه السلام هو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما جاء هذا المعنى في حديث الشفاعة، وفيه يقول الناس لنوح عليه السلام: ((أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض))، وفي القرآن الكريم قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، فنوح عليه السلام أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ولهذا قال الشيخ رحمه الله: «فأولهم نوح عليه السلام»

«أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين» ؛ هنا يبين رحمه الله بهذه الإشارة إلى أساس المشكلة عند قوم نوح وأن سبب البلاء والشر الذي وقع فيه هؤلاء هو: الغلو في الصالحين، والغلو في الصالحين: تجاوز الحد في حق الصالحين، يتجاوزون الحد في حق الصالحين من جهة تعظيمهم ورفع أقدارهم إلى أن يضيفوا عليه شيئاً من خصائص الله تبارك وتعالى وما لا يليق إلا به سبحانه وتعالى وما لا يصلح إلا له.

قال: «لما غلو في الصالحين» وهذه إشارة منه رحمه الله تعالى إلى أساس المشكلة، قد قال عليه الصلاة والسلام: ((ياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو))، فالغلو ولاسيما في الصالحين هو أعظم أسباب الفساد والوقوع في الشرك بالله تبارك وتعالى، ومن المعلوم أن للصالحين مكانة في نفوس الناس ومنزلة في قلوبهم اكتسبوها عبر أيام طويلة عاشوها مع الناس بالأخلاق الفاضلة والآداب الطيبة والمعاملات الحسنة والدعوة إلى الخير، فأصبح لهم في

قلوب الناس مودة ،وأصبح لهم إلى نفوس الناس قرب ومكانة، والشيطان وجد هذا مدخلاً على الناس لصرفهم عن دين الله تبارك وتعالى وعن التوحيد الذي خُلقوا لأجله، فكان من أمرهم أنه لما مات عدد من الصالحين في قوم نوح وهم خمسة ذكرت أسمائهم في القرآن: وَدَّ وَسَوَاعٌ وَيَعُوثُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا، لما مات هؤلاء الصالحون وقد كانت لهم في نفوس الناس مكانة عليّة ومنزلة رفيعة أتى الشيطان إلى أقوامهم بعد وفاتهم ونفوسهم متأثرة بفقدانهم فدعاهم إلى أمرين:

١- دعاهم إلى العكوف عند قبورهم أي البقاء الطويل والمكث الطويل عند القبور ، وبدأ معهم هذا الأمر بنية أو بقصد تذكر هؤلاء الصالحين؛ تذكر فضائلهم، وتذكر دعوتهم، وتذكر نصائحهم، فدعاهم إلى العكوف، أن يبقى عند قبر الرجل الصالح وقتاً طويلاً، والقصد في هذا الأمر في بداية الأمر هو أن يذكر ، قال لهم: "لا يليق بكم أن يموت وتنسونه تنشغلون بمصالحكم وحاجتكم؛ بل تخصصون أوقاتاً تمكثون فيها مكثاً طويلاً عند قبورهم وتبقون بقاءً طويلاً عند قبورهم من أجل ذكر فضائلهم ، ذكر دعواتهم ، ذكر نصائحهم ، ذكر ما أثرهم إلي غير ذلك"، هذا الأمر الأول.

٢- والأمر الثاني : دعاهم إليه بعد الأمر الأول؛ أن يتخذوا لهم تصاويراً؛ لأنه ربما يشق عليهم في كل مرة أو يتكرر منهم الذهاب إلى القبور والعكوف عندها، فأرشدتهم إلى أمر آخر وهو أن يتخذوا لهم تصاوير تحقق لهم نفس الغرض؛ وهو بقاء ذكر هؤلاء وبقاء الصلة بهمؤلاء وعدم نسيانهم، قال: "تتخذون لهم تصاوير ، وتكون هذه التصاوير قريبة منكم، تكون مع الإنسان في بيته تكون في تجارته، تكون في طريقه، تذكركم هؤلاء الصالحين". فأرشدتهم إلى هذين الأمرين: العكوف عند قبور الصالحين، واتخاذ التصاوير لهم. وترك هذا الجيل، اكتفى مع هذا الجيل بهذين الأمرين وتركهم إلى أن مات هؤلاء واندرس العلم، فأتى إلى الجيل الذي بعده ، وهذا يستفاد منه أن الشيطان -أعاذنا الله وإياكم منه- طويل النفس في دعوته ؛ يعني ممكن يضع الغرس الآن ولا يطلب ثمرته إلا بعد مائة سنة ما عنده مشكلة، يضع الغرس الآن وتكون الثمرة ليس للجيل القادم ولا الجيل الذي بعده ما عنده مشكلة، فعنده طول نفس في دعوته وإضلال الناس عن دين الله تبارك وتعالى، ولهذا اكتفى مع الجيل الأول بهذين الأمرين، ثم لما مات هؤلاء ودُرس العلم ونُسي وقلّ في الناس العلماء، جاء للجيل الذي بعدهم وقال لهم: "أتدرون لم كان آبائكم وأجدادكم يعكفون عند تلك القبور؟ ولماذا كانوا يتخذون لها التصاوير؟ هل تعرفون السبب؟ إن السبب لذلك أنهم إذا كانوا استغاثوا بها أُغِيثُوا، وإذا سألوا بها أُعْطُوا"، فأدخلهم من هذه البوابة على الشرك.

ولا يزال الشيطان ماضياً في الطريقة نفسها في إدخال الناس إلى الشرك من الباب نفسه، مع أن الله تعالى ذكر لنا هذا الأمر في القرآن وبَيَّنَّ النبي عليه الصلاة والسلام في السنة إلا أنه لا يزال أناس كثيرون يدخلون إلى الشرك من البوابة نفسها ومن الطريق نفسه؛ العكوف عند قبور الصالحين واتخاذ التصاوير لهم. وإذا فتشت فيما يقع فيه الناس من شرك في هذا الزمان أو قبل هذا الزمان لو فتشت عن أعظم سبب له تجد أنه من خلال هذين الأمرين:

العكوف عند القبور، وهذا ينتظم تشييد القبور وزخرفتها ووضع الستور عليها والأشياء التي تدعوا الناس إلى العكوف عندها والبقاء، واتخاذ التصاوير، ولهذا خص النبي هذين الأمرين بالذكر في أحاديث كثيرة مثل: حديث علي قال عليه الصلاة والسلام: ((لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته ولا صورة إلا طمستها))؛ خص هذين الأمرين بالذكر، قال أيضاً في الحديث الآخر: ((أولئك شرار الخلق، إذا مات فيهم الرجل الصالح عكفوا على قبره، وجعلوا له تلك التصاوير)) أو كما قال عليه الصلاة والسلام . فذكر هذين الأمرين.

قال: «فأولهم نوح عليهم السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين»، غلوهم في الصالحين: بالعكوف عند قبورهم وباتخاذ التصاوير لهم ، ومن ثم بالتوجه إليهم في السؤال والدعاء وطلب الغوث والالتجاء.

قال: «لما غلوا في الصالحين ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر» هذه الأسماء الخمسة جاءت في موقع البدل من قوله «في الصالحين» فتكون تقرأ مجرورة «ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر» بدل من قوله «في الصالحين»، فالصالحين الذين غلا فيهم قوم نوح هم هؤلاء الخمسة: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فهذه الأسماء الخمسة أسماء رجال صالحين، والطريقة التي صار الناس بسببها إلى عبادة هؤلاء الصالحين من دون الله هي التي شرحتها قبل قليل، قد قال الله تعالى في سورة نوح: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿[نوح: ٢٣-٢٤]، فهذه الأسماء الخمسة كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام لما ماتوا عكف الناس على قبورهم واتخذوا لهم تصاويرا إلى أن عبدوا من دون الله تبارك وتعالى.

العجيب في الأمر؛ أن هذا أول شرك وجد وهذا مدخله وهذا سببه ، وبُعث أول رسول وهو نوح عليه السلام بعث إلى أهل الأرض لتحطيم هذا الشرك وبيان بطلانه ، ومضى في قومه داعيةً إلى التوحيد ومحذراً من هذا الشرك، مضى فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥٠-٦٠].

فمضى فيهم سنوات طوال وعمر مديد يدعوهم وهم مصرون على هذا الشرك، إلى أن أمر الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام أن يصنع الفلك، وأخذ يصنع الفلك ويمر به قومه ويسخرون منه؛ لأنه يصنعه في الصحراء، فكان قومه كلما مروا به سخروا منه، ثم أذن الله سبحانه وتعالى للأرض فأخرجت الماء، وأذن للسماء فنزل المطر، حتى طغى الماء على الأرض وغطى الجبال ، ولم ينبج من الماء إلا من كان في السفينة، وأصبحت السفينة مضرب مثل في الحق ولزومه، مثل ما قال الإمام مالك رحمه الله عليه قال: «السنة سفينة نوح؛ من ركبها نجا ومن تركها غرق»، فلم ينبجوا إلا من ركب السفينة، وعم الماء الأرض وغطى الجبال وهلك كل من على وجه الأرض.

وقد ذكر في كتب التاريخ أن هذه الأصنام الخمسة مع الطوفان والمياه حملت المياه هذه الأصنام وألقته في جدة على شاطئ البحر وغطتها الرمال ، وبقيت مدفونة إلى أن جاء في زمن ما قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام بوقت ليس بطويل عمرو بن لحي، قد جاء في صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام رآه في النار يجر قصبه في النار وقال ((هو أول من سيَّب السوائب))، وجاء في بعض الروايات أنه أول من غيَّر دين إبراهيم، وذكر أن عمرو بن لحي رثي من الجن وكان صاحب كهانة فأتاه رثي من الجن وهتف به : "أن اذهب إلى تھامة بالحفظ والسلامة، واذهب إلى جدة تجد بها أصنام معدة، خذها إلى العرب وأدعوهم إليها ولا تھب"، إلى آخر ما سمعه، فذهب إلي جدة وحفر عن تلك الأصنام وجاء بها ودعا إليها العرب فأجابوه ، وعبدوا نفس الأصنام؛ ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا، وأضافوا إليها أيضاً أصناما كثيرة.

وقد حطم النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة في البيت وحول البيت ما يزيد على ثلاثمائة وستين صنماً، كان يكسرها عليه الصلاة والسلام بيده ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فكسر الأصنام، ومن جملة الأصنام التي كسرها عليه الصلاة والسلام هذه الأصنام الخمسة، ولهذا قال الشيخ: «وأولهم نوح أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين وذاً وسواعاً ويغوثاً ويعوقاً ونسراً. وآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين»؛ أي المعبودة على عهد نوح عليه السلام، وهي صور ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، ولهذا يقول الشيخ محمد بن إبراهيم في تعليقٍ عظيم له على هذا الموضع يقول: «فانظر إلى آثار الشرك وعروقه إذا علقته متى تزال وتنمحي»!! هذه الأصنام التي وجدت متى كُست؟ وُجدت قبل زمن أول رسول يُبعث، وُبعث للتحذير منها، ولم تُكسر إلا في زمن آخر رسول، ولهذا قال: «فانظر إلى آثار الشرك وعروقه إذا علقته متى تزال وتنمحي، فإن هذه الأصنام بقيت من يوم عبدت من دون الله حتى بُعث محمد صلى الله عليه وسلم وكسرها، فالشرك إذا وقع عظيمٌ رفعه وشديد، فإن نوحاً مع كمال بيانه ونصحه ودعوته إياهم ليلاً ونهاراً سرا وجهاراً أخذ ألف سنة إلا خمسين عاماً ما أجابه إلا قليل ، ومع ذلك أغرق الله أهل الأرض كلهم من أجله، ومع ذلك تلك الأصنام الخمسة ما زالت حتى بعث محمد صلى الله عليه وسلم وكسرها، قال: "فيفيدك عظم الشرك إذا خالط القلوب صعب زواله، كيف أن أصناماً عبدت على وقت أول رسول وما كسرها إلا آخرهم» ؛ هذا كلام الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله تعالى.

قال رحمه الله:

وآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين؛ أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله؛ ولكنهم يجعلون بعض المخلوقين وسائط بينهم وبين الله عز وجل، يقولون:

نريد منهم التقرب إلى الله تعالى ونريد شفاعتهم عنده مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين

قال رحمه الله تعالى: «وآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم»؛ آخرهم : أي خاتمهم الذي حُتم به النبيون، كما قال الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وكما صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((أنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي)).

«وآخر الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين» أي: يوم فتح مكة، لما فتح مكة ودخلها عليه الصلاة والسلام فاتحاً أخذ يحطم الأصنام بيده ويكسرها عليه الصلاة والسلام بيده وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. فطهر الله عز وجل بيعته عليه الصلاة والسلام ودعوته صلى الله عليه وسلم البيت من الأصنام ومن المشركين ومن أعمال المشركين؛ فهدى الله عز وجل به من الضلالة، وبصر به من العمى، وفتح به آذاناً صمّاً وقلوباً غلغلاً -صلوات الله وسلامه عليه-.

قال : «وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين»؛ هؤلاء الصالحين: أي هؤلاء الخمسة وما أضيف إليها من الأصنام الكثيرة التي كانت داخل بيت الله عز وجل داخل الكعبة وأيضاً حول الكعبة. وهنا أيضاً ندرك نعمة الله سبحانه وتعالى علينا بأن أكرمنا ببعثة هذا النبي عليه الصلاة والسلام، الأصنام كانت داخل بيت الله، انظروا إلى التحول إلى الوثنية والضلال، الأصنام جعلوها بسبب شبهات أهل الباطل وضلالهم وإضلالهم جعلوا الأصنام داخل بيت الله، وجعلوها أيضاً مُحْتَقَّةً ببيت الله!! فَمَنَّ الله عز وجل وأكرمنا ببعثته صلى الله عليه وسلم فحطم الأصنام كما أنه حطم الشرك، وأنقذ الله سبحانه وتعالى به من شاء من عباده من الشرك وهداهم إلى صراط الله المستقيم، وينبغي أن يستشعر المسلم عظم هذه النعمة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ مِنَّةٌ من أعظم المنن وأجلّها أن بعث فينا سبحانه وتعالى هذا الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه .

قال: «أرسله الله إلى أناس» -وانتبه إلي هذه الفائدة العظيمة- قال: «أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً» هذه كلها أمور كانوا يفعلونها، الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام شأنهم كما وصف شيخ الإسلام رحمه الله، كانوا يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيراً ، وأيضاً يُعرفون بصلة الأرحام ويُعرفون أيضاً بإكرام الضيف، ويعرفون أيضاً بأخلاق فاضلة ربما لا ترى بعضها في بعض المسلمين، واسمع إلى أحد الشعراء الجاهليين المشركين حيث يقول في أبيات له:

واغض طرفي إن بدت لي جارتي
حتى يوارى جارتي مأواها

هذا شاعر جاهلي!!! واغض طرفي إن بدت لي جارتى *** حتى يوارى جارتى مأواها

الآن يوجد في بعض المسلمين من يتلصص على بيوت الجيران حتى ينظر إلى حريم جيرانه، فكان عندهم أمور وأخلاق وكرم، عندهم عبادة، عندهم ذكر، عندهم حج يحجون ويلبون ويقفون بعرفة ومزدلفة يقومون بهذه الأعمال. قال: «أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا»

هذا الذي قال: "واغض طرفي إن بدت لي جارتى *** حتى يوارى جارتى مأواها" هو الذي أيضاً يقول لمعشوقته ومحبوته: يا عبل أين من المنية مهرب *** إن كان ربي في السماء قضاها

ماذا تستفيد منه؟ وهو شاعر جاهلي!!

يؤمن بالقضاء، وأن القضاء بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى في السماء، كل هذه يؤمن بها، يؤمن بأن الله في السماء، وأن القضاء سبحانه وتعالى بيده، "إن كان ربي في السماء قضاها"، وعندهم أخلاق، عندهم عبادات، عندهم ذكر لله سبحانه وتعالى، إذا ما هي مشكلتهم -مادام أن هذه الأمور كلها موجودة-؟ وأيضاً يقولون بأن الذي خلقهم ورزقهم وأوجدهم هو الله، ويقولون بأسماء وصفات لله عز وجل يؤمنون بها، ويؤمنون بعلوه على خلقه، جاء في المسند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأحد المشركين: ((كم إلها تعبد؟))، قال: "سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء"، قال: ((أيهم الذي تجعل لرغبك ورهبك؟)) قال: "الذي في السماء"، قال: ((إذا أترك الذي في الأرض واعبد الذي في السماء))، رب العالمين يقول: ﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [سك:١٦]، كانوا يقولون أن الله في السماء، يؤمنون بالقضاء، يؤمنون بأن هالرب الخالق الرازق، وأيضاً يعبدونه ويحجون ويصلون ويقفون بالمشاعر، فهذه الأمور كلها يقومون بها، المشركين الذين بُعث فيهم عليه الصلاة والسلام وُبُعث في قتلهم يقومون بهذه الأمور، ولهذا نتبه لما ذكرته في البداية قلت: يحتاج المسلم أن يعرف دين المرسلين ودين المشركين، ومن لم يعرف دين المشركين ربما عمل شيئاً من أعمالهم ومارس شيئاً من أعمالهم وهو يظنها أنها من دين المرسلين، وهذا الذي وقع فيه عبّاد القبور وأرباب الباطل في قديم الزمان وحديثه.

قال: «أرسله الله إلى أناسٍ يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا؛ ولكنهم...» هنا تعرف المشكلة التي عند هؤلاء «ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله عز وجل» هذه مشكلتهم: ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله عز وجل، يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله تعالى ونريد شفاعتهم عند الله، هذه المشكلة؛ يعني عندهم عبادة، عندهم حج، عندهم صدقة، عندهم ذكر لله، عندهم أخلاق، عندهم كرم، عندهم صلة أرحام، عندهم إقرار بأن الرب الخالق الرازق هو الله، الإقرار بالقضاء والقدر، الإيمان بعلو الله على خلقه، أمور موجودة؛ لكن المشكلة التي بُعث النبي صلى الله عليه وسلم لكشفها وبيان بطلانها وتحذيرهم منها وإنذارهم من مغبتها هي هذه.

قال: «ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله ونريد شفاعتهم عنده» ؛ نريد منهم التقرب إلى الله: أي نريد منهم أن يقربونا من الله؛ لأن منزلتهم عند الله أعظم من منزلتنا، ونحن عندنا تقصير وعندنا خطأ وعندنا خلل عندنا ذنوب، وهؤلاء لهم مكانة عند الله ولهم منزلة ولهم قدر عند الله سبحانه وتعالى، فنحن نريد منهم أن يقربونا إلى الله، قال الله عز وجل عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣]، هذا هو قصدنا، قصدنا من عبادتهم ودعائهم وسؤالهم والتوجه إليهم أن يقربونا إلى الله، هذا معنى قوله: «يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله».

والأمر الثاني قال: «ونريد شفاعتهم عنده»، مثل ما قال الله عز وجل عن المشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، قالوا: نحن نريد شفاعتهم عنده؛ أي أن يشفعوا لنا عند الله سبحانه وتعالى؛ ولهذا يتجهون إليهم مباشرة: (مدد يا فلان)، (ادركني)، (الحقني)، (اشفع لي)، (اعطني)، (إن لم تنقذني من الذي ينقذني)، (إن لم تكن آخذاً بيدي من الذي يأخذ بيدي)، (مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم).. إلى غير ذلك من الكلام، التجاء إلى مخلوقين لله تبارك وتعالى بقصد أن يقربوهم إلى الله ، وبقصد أن يكونوا شفعاء لهم عند الله سبحانه وتعالى.

قال: «مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين»، والشيطان وجد هذا هو المدخل الأبلغ تأثيراً في نفوس الناس، لماذا؟ لأن مكانة الأنبياء والصالحين والملائكة في قلوب الناس عظيمة ومنزلتهم عليّة فدخل من هذا المدخل؛ من خلال أمر حبيب إلى نفوس الناس وهو محبة الصالحين ومكانة الصالحين.

قال: «مثل: الملائكة، وعيسى، ومريم، وأناس غيرهم من الصالحين»، وفي الشرح يقول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، يقول: «وأهم شيء معرفة دين المرسلين فيتبع، ومعرفة دين المشركين والشياطين فيجتنب، فإن من لم يعرف الجاهلية لا يعرف الإسلام، وللشيخ -يعني محمد بن عبد الوهاب رحمه الله- مؤلفٌ في مسائل الجاهلية».

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.